

## الشبهة التاسعة عشرة

### نقد السند دون المتن

السند هو سلسلة الرواة الذين رووا الحديث عن رسول الله ﷺ . والمتن هو الكلام المروى عن رسول الله ﷺ ، ويبدأ السند من الراوى الذى سمع الرسول يتحدث بحديث فى التبليغ عن الله ، ثم الذى سمعه منه - من السامع الأول - ثم الذى سمعه من السامع الثانى وهكذا حتى المنتهى .

وقد تكون الرواية رؤية بصرية لفعل فعله النبي ﷺ ، أو سكوتا منه عن فعل فعله صحابى أمام الرسول فلم ينهه عنه ، فيكون ذلك السكوت دالاً على إباحة ذلك الفعل لفاعله ولغيره .

وهذه هى السنة بأقسامها الثلاثة :

● الأقوال الصادرة من النبي ﷺ .

● الأفعال الواقعة منه .

● التقريرات السكوتية عما قيل أو فعل فى حضرته عليه السلام، وعلماء الحديث لما نشطوا لجمع الأحاديث والسنن ، بعد رغبة الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز فى ذلك . وضعوا شروطاً حكيمة لمن تقبل رواياتهم ، ولمن ترد رواياتهم ، وبذلوا فى هذا المجال جهوداً مضيئة ، وفحصوا أحوال الرواة فحصاً دقيقاً ، تطمئن إليه النفس ، ويستريح القلب كل هذا تم من خلال « علوم الجرح والتعديل » ومعنى الجرح الوقوف على « النقائص » التى تمنع من قبول رواية الرواة ومعنى التعديل الثناء على الرواة الذين تتوفر فيهم شروط قبول الرواية ، وعلوم الجرح والتعديل ، أو الذم والتزكية من أهم علوم الحديث ، وأعلها شأناً . وقد نتج عنها عمل قوائم للرواة ، كما نتج عنها تقسيم الرواة « طبقات » بينها تفاوت فى الدرجات ، سواء فى ذلك المجرحين والمعدلين ، كما وُضع المعدلون فى درجات ،

والمجرَّحون فى درجات ، إذ لیس كل المعدلین فى درجة واحدة ، ولا كل المجرَّحین فى درجة واحدة .

وإذا غضضنا النظر عن المجرَّحین بدرجاتهم ، ووقفنا وقفة قصيرة أمام المعدلین فإننا نستطیع أن نقول : إنهم عند علماء الحدیث ضربان :

● الأقویاء أو الثقات .

● الضعفاء .

ولم یرو علماء الحدیث أى حدیث عن غیر هذین الفریقین، وما أكثر الألقاب التى أطلقوها على أفراد هؤلاء الذین قبلوا روايتهم ، مثل : صدوق ، ثقة ، لا بأس بحدیثه، مقبول ... إلخ .

أما غیر هذین الفریقین فهم «الوضاعون» والمتروكون، كل هذا - وغیره كثير - نتج عن نقد «السند» أو سلسلة الرواة .

وقد هال منكرى السنة ما رأوه أو سمعوا عنه من الجهود الجبارة التى قام بها علماء الحدیث لنقد السند، وبدل من أن يعظموا هذا الجهد ، ويتخذوا منه مدخلا للإقرار بالسنة ، عكسوا الوضع فاتخذوه مسبة قاذحة فى السنة ، وخطط لهم الشيطان لیجعلوا الأبيض أسود ، والحق باطلا ، فقالوا :

إن علماء الحدیث اهتموا بنقد السند ، وأهملوا نقد المتن ، وهو الأهم ؟ لأن المعانى فى المتن ، ولیس فى الأسانید .

والهدف الذى یریدون الوصول إليه هو الطعن فى متون الاحادیث ، أى الطعن فى كلام النبى نفسه ، ثم فى أفعاله ، ثم فى موافقاته ، على ما وقع فى حضرته من أفعال أو أقوال .

ومسلك هذا الطعن عندهم أن الاحادیث المروية عن الرسول ما تزال فى حاجة إلى نقد (غریلة) لأن علماء الحدیث لم یقوموا بهذه المهمة ، ولم یميزوا بین الحدیث السليم ، والحدیث الدخیل، فلا بد من إعادة النظر فیها لنبقى الصالح منها ، ونلغى غیر الصالح ؟! یعنی أن السنة ما زالت غُفلاً فیها باطل مجهول .

## تفنيد هذه الشبهة ونقضها :

اعتناء علماء الحديث بنقد السند نقداً دقيقاً واسعاً حقيقة لا يمارى فيها أحد . وآثارهم تشهد بذلك الاهتمام أما نقد المتن فلم يبلغ عشر معشار نقد السند ، وهذه حقيقة ، لا يمارى فيها أحد كذلك .

ففى نقد السند تتبعوا الرواة واحداً واحداً ، حتى لكانهم كانوا يرونهم رأي العين .

أما فى نقد المتن ، فقد وضعوا قواعد كلية ضابطة يمكن بمراعاتها معرفة الحديث المقبول ، ومعرفة الحديث المردود . فهم - أعنى علماء الحديث - لم يهملوا نقد المتن كلية ، بل لهم فيه عمل حكيم محمود ، وإن جحدته الجاحدون فليس ما تقدم موضع جدل عندنا ، وإن كان كلام منكرى السنة يوهم بأن علماء الحديث لم ينقدوا المتن أي نقد واسعاً أو ضيقاً .

لكن هل يؤاخذ علماء الحديث على هذا السلوك ؟ وهل عدم التوسع فى نقد المتن دليل على أن الأحاديث المروية عن النبي ﷺ بضاعة مفسوشة ، يجب اطراحها ونزع الثقة عنها ؟!

وفى الرد على هذين السؤالين نقول فى إيجاز شديد :

لا يؤاخذ علماء الحديث على توسعهم فى نقد الأسانيد ، وقلته فى نقد المتن ، لأن لكل من الأمرين ما يقتضيه .

لأن النقد الأول موضوعه الرجال الذين تسلسلت الرواية عنهم ، وهم لا يحصون عدداً . فالحديث الواحد يكون فى سنده عشرة رجال أو أقل أو أكثر . ولا بد من فحص كل واحد منهم فإذا فرضنا أن (أ) كتب مصنفاً فى الحديث خرَّج فيه ألف حديث ، وكان متوسط السند خمسة رواة فى كل حديث فمعنى هذا أنه لابد أن يكون لديه دراية بسيرة خمسة آلاف رجل . وليس هذا بالامر السهل اليسير ، ومعرفة سيرة هؤلاء الرواة كلهم ضرورة لابد منها لتوثيق الحديث المروى ، ومعرفة لقبه :

صحيح - حسن - ضعيف - موضوع . ونقد السند هو فى حقيقة الأمر  
خادم لمتن الحديث ، ولولا خدمة الحديث نفسه ما كان نقد السند ، فالأمران  
متصلان لا منفصلان ، وإن غابت هذه البدائى عن منكرى السنة أجمعين .

### نقد السند أولى :

وعلى نقيض ما يدعى منكرى السنة وأعداؤها ، من رمى علماء الحديث  
بالقصور فى الاهتمام بنقد السند دون نقد المتن ، فإن علماء الحديث  
كانوا موفقين كل التوفيق من الله فى ما صنعوا لأن نقد السند أولى من نقد  
المتن .

فقد عرفنا أن نقد السند موضوعه أخبار وسير الرواة ، وهى أمور مخبوءة ؛  
لأنها أسرار حياتهم وسلوكياتهم ، فذكر الراوى فى الحديث لا يكشف عن  
سيرته ، ولا يُحدِّث عن أخباره ، فكان تتبع هذه السير والأخبار والأسرار ضروريا  
فى توثيق الحديث والسند .

ونحن - الآن - إذا قرأنا حديثا بسنده ، وعرفنا أسماء الرواة لا تتضح لنا  
من رسم أسمائهم أخبارهم وسيرهم التى كانوا عليها وهم أحياء ، وكفانا هذا  
كتب الجرح والتعديل ، وما قاله علماء النقد فى كل راوٍ منهم .

أما متن الحديث فهو يحمل فى طياته أخباره ومعانيه ، وفى استطاعة أهل  
العلم أن يعرفوا الحديث المقبول من الحديث المردود بمجرد النظر العابر فى معناه  
ومضمونه ، فمثلا ما يروى فى الموضوعات على أنه حديث مثل :

« النظر إلى الوجه الجميل عبادة » ندرك ببديهة النظر أنه مكذوب موضوع  
لم يقله النبى ﷺ ، ولو كان سنده من أصح الأسانيد : مالك عن نافع عن ابن  
عمر مثلا .

فالمتن يحمل معه مقتضيات الحكم عليه دون السند ، ولو كان علماء  
الحديث قد عكسوا فتوسعوا فى نقد المتن واقتصدوا فى نقد السند لكانوا فعلا  
أعملا للمؤاخذة واللوم .

## نقد المتون :

جارينا منكرى السنة على أن علماء الحديث تركوا النقد التفصيلي للمتون، بل إن الشائع عند الدارسين من غير منكرى السنة هو هذا القول :  
علماء الحديث لم ينقدوا المتون نقدا تفصيليا ، بل وضعوا لها أمارات وعلامات كلية ، يعرف بها المتن السليم من العليل .

لكننا نرى إضافة إلى هذا الفهم ، أن علماء الحديث لهم عمل آخر في نقد

المتون :

هو أن الأحاديث السليمة متونها يذكرونها دون إبداء أية ملاحظات عليها . وهذا معناه أن متون هذه الأحاديث بريئة من النقد والمؤاخذات . فهو نقد إيجابي صامت كما في البخارى ومسلم ، وأبى داود ، والترمذى ، والنسائي .

أما الأمارات والضوابط التى وضعوها لنقد المتون فهى موضوعة لغير الثقات من جامعى الأحاديث ، أى للكتب التى تجمع الأحاديث بدون تمحيص . فهذه الكتب ، التى لم تحظ من جامعيتها بعناية فائقة ، أو ما يروى فى كتب التفسير والفقہ - أحيانا - فإن هذه القواعد مفيدة لمن يطالع فيها حتى يسهل عليه معرفة ما ليس بحديث .

وبهذا تندفع هذه الشبهة التى هوّل من شأنها منكرى السنة . وقد ظهر لنا بكل وضوح أن ترك نقد المتن فرداً فرداً ليس معناه بطلان تلك المتون ، أو شيوع الشك فى صدقها . والصواب هو ما صنعه علماء الحديث ، لا ما أخذه عليهم منكرى السنة الأغرار .

\* \* \*